



أغضبت مقالة الأمس قوماً وسوف تغضب مقالة اليوم قوماً آخرين، فإذا ما انتهيت من هذه المقالات فقد لا يبقى لي صديق. ولكنني لم أكتبها لأكسب أصدقاء، إنما كتبتها صادقاً مخلصاً حسبة لله وللثورة ولشعب سوريا الكريم، فإن أرضيت الله وجلبت بها نفعاً أو صرفت ضرراً فكفاني، وإذا أخطأت فأسألت إلى أحد من الناس بغير حق فإني أعتذر إليه وأستغفر الله، وهذا عرضي مباح لمن ظلمته فليقتصرّ مني، فلئن أسوّي حسابي في الدنيا خير وأحب إلى من أن يؤجّل قضاؤه إلى الآخرة.

في المقالة السابقة حذرت من الصحوات التي أخشى على سوريا منها، ورغم أنني ذكرت جبهة من الجبهات العاملة في الميدان باسمها إلا أنني أثنيت على الكتائب التي تستظل بمظلتها وقلت إنهم مجاهدون صادقون فيما أحسب، والله حسيبهم، ولم أطلب منهم إلا أن يفكوا ارتباطهم بممولي الجبهة فحسب.

وأريد اليوم أن أنظر إلى الجهة الأخرى: إذا كان أولئك المجاهدون من الأخيار السابقين فكيف يمكن أن يُستعملوا في مشروع اقتتال داخلي في أي يوم قادم لا قدر الله؟
إذا كان لأي اختراق للثورة أن يحصل في سوريا فإنه سيحصل بسبب الأخطاء التي ترتكبها بعض الجماعات المقاتلة، وقد يكون مجرد رد فعل عليها.

هذه الأخطاء بدأت قليلة ولكنها ما تزال تتکاثر ولا نرى جهداً حقيقياً مخلصاً لاحتواها، فقد حرم السكوت عنها وأن أوان الدعوة إلى إصلاحها، ولا بد أن أصرّ في هذه المقالة بالأسماء كما صرحت في المقالة التي قبلها، فإن العلاج يقتضي الصراحة ولا يصلح له التلميح والإيماء.

لقد زادت الممارسات السلبية التي يقوم بها مجاهدو جبهة النصرة (وبعض المجموعات "الصغيرة" التي تحمل فكراً قريباً من فكرها ومنهجاً قريباً من منهاجها)، زادت في أكثر المناطق التي يسيطرُون عليها، وهي ممارسات تزعج الناس في يومهم الحاضر وتخوّفهم من المستقبل، وأخشى -إن لم يُسأر إلى علاجها- أن تفتح باباً لأعدائنا ليتسللوا منه إلى حربنا كما حصل في العراق في تجربة الصحوات المرّة الأليمة.

بعض مجاهدي تلك الجماعات يتصرفون مع الناس بوصاية واستعلاء.

الاستعلاء بمعنى أنهم خير من الآخرين، فهم على صواب مطلق والآخرون يتبعون خطؤهم بالصواب أو أنهم بعيدون أصلاً عن الصواب، ثم تأتي الوصاية لتبرّر لهم فرض الصواب على الآخرين لأنهم يعلمون ما لا يعلمه الآخرون.

إن الاستعلاء كُبُر، والكبير من أكبر الكبائر حتى لو كان في الدين، فمن ظن أنه أحسن ديانة من فلان وأن الله يقبل منه ولا يقبل من غيره فقد تألى على الله، والتألى جريمة يعاقب عليها الله بالخسران.

أما الوصاية فلا تكون إلا من الكبار على الصغار أو الراشدين على القاصرين، والسوّريون الذين قاموا بالثورة وحملوها حتى اليوم ليسوا صغاراً وليسوا قاصرين.

إن تلك الممارسات تحاصر حرية الناس وتعتدي على كرامتهم، وقد زادت حتى ضجّ منها كثيرون.

لماذا يا أيها المجاهدون؟ لماذا تنفرون الناس بالغلظة والوصاية والاستعلاء؟

لماذا تجرحون كرامة الإنسان، وهي أثمن ما يملكه الإنسان بعد الإيمان؟

لقد ثار السوّريون على النظام من أجل حريتهم وكرامتهم، فهل تظنون أنهم سيقبلون بأي بديل يحرّمهم من حريتهم أو يعتدي على كرامتهم التي ثاروا من أجلها؟

وهل تحتملون ثورتهم إذا ثاروا غداً عليكم ورفضوا المذلة والهوان؟

إن الشعب الذي لم يستطع نظام الاحتلال الأسدّي المجرم أن يغله لن تغله قوة أخرى من قوى الأرض، فداروه وارفقوا به أو انتظروا منه ثورة البركان!

* * *

لقد قلت ذات يوم إنني أختلف مع القاعدة في أمور، فهاج عليّ أنصارها وانتقدني بعضهم وسبّني آخرون. لماذا؟

هل أحدُّ أفضُل من صحابة رسول الله الذين خطأ بعضُهم بعضاً واستدرك بعضهم على بعض؟

وهل يلزم من محبة إخواننا المسلمين أن نكون نُسخاً عنهم وأن نقبل كل ما فيهم بلا أدنى خلاف؟

بومها سألني كثيرون: وما الذي تختلف فيه القاعدة؟

الآن جاء الجواب: لن أذكر اختلافنا في التفصيات والفروع فإنه لا يؤبه له ولا ينبغي أن يُشتمل به، بل سأقتصر على ثلاثة مسائل رئيسية أرى أنها هي جوهر الخلاف: واحدة من مسائل العقائد، والثانية من مسائل الأحكام، والثالثة مما يندرج في المناهج والبرامج.

وأخشى أنها قد بدأت تتسلّب كلها إلى مجاهدي النصرة وبعض الكتائب التي تشاركتها في الفكر والمنهج، فانتبهوا إليها وتداركوهَا قبل أن تستفحّل ويستعصي علاجها؛ أصلحوها قبل فوات الأوان.

المسألة الأولى التي أخالفهم فيها هي الجرأة على التكفير.

والثانية متعلقة بها، وهي التهاون في الدماء.

وأنا مذهبى هو النقيض، فإنني أقول:

إذا كان التردد في تكبير الكافر تقسيراً فإن تكبير غير الكافر ذنب عظيم، وإذا كان ترك المذنب تفريطاً فإن قتل البريء جريمة لا تغفر، فلأنَّ القى الله مقصراً أو مفرطاً خيرٌ لي من أنَّ القاه مذنبًا بالذنب العظيم مجرماً بالجريمة. لقد لبست أنتباع هذه المسألة منذ سنة أو أكثر، وقد مررت شهور طويلة بسلام فلم أر لها أثراً يذكر، لكنها ظهرت أخيراً وبدأت تتفاقم حتى صارت خطراً كبيراً ينبغي الحذر منه والتحذير، فإن التكبير والتهديد بالقتل لم يعودا كلمات منثورة في بعض الصفحات على استحياء، بل صارا لهجة جازمة تتكاثر عدداً وتزداد قوة كل يوم.

لقد تواترت في العالم الحقيقي -في الميدان- وفي العالم الافتراضي -في الصفحات والمنتديات- تهديدات سخيفة يقول أصحابها إنهم سوف يتفرغون لقتال الجيش الحر بعدما يفرغون من الحرب على النظام، ومنهم من يتوعد جماعات أخرى تخالفهم في الفكر والمنهج، بل إن منهم من يخزن السلاح ويدخره لذلك اليوم.

ونحن نقول لهم: إن تهديد المسلمين بالقتال والقتل جريمة، أما قتالهم وقتلهم فإنه كبيرة من أكبر الكبائر تبؤ صاحبها مقعداً في النار.

ونقول لهم: إنَّ كل من قاتل على أرض سوريا هو في ذمة السوريين جميعاً، لن يُسلِّموه ولن يخذلوه إن شاء الله، لا فرق بين من يصنفون جيشاً حراً ومن يصنفون كتائب جهادية، فكلهم إخواننا وفي أعيننا ولن نُسلِّمهم ولن نسمح بأنْ يُرفع في وجههم سلاح أو تتمدَّ إليهم يدُّ بعوان.

إننا نريد من كل من حمل السلاح عهداً ووعداً بأن يستعمله في اثنين لا ثالثة لهما: إسقاط النظام، وحماية المدنيين من خطره اليوم ومن خطر بقایاه وفلوله غداً.

أما الاختلاف في الرأي والاختلاف في المنهج فلا يُحسَم بالسلاح أبداً، هذه قاعدة من آكد القواعد وهي الخط الأحمر الذي لن تقبل الثورة ولن يسمح السوريون بتجاوزه في أي يوم إن شاء الله.

* * *

المسألة الثالثة التي أختلف فيها مع القاعدة ومن حمل فكرها ومنهجها تتعلق بالأسلوب والوسائل.

ولا أقصد هنا الهدف الذي هو سيادة الدين وتحكيمه في حياة الناس، فإنه هدف يتفق عليه ثلاثة أرباع أهل سوريا، ويشاركهم كاتب هذه السطور بالتأكيد.

إنما أقصد الأسلوب الذي يوصل إلى ذلك الهدف، وهو قائم عندهم على الغلبة والإكراه.

أما أنا فمذهبي الذي أعلنته غير مرة والذي لا أملَّ من تكراره: إقناع الناس بالإسلام وليس الإلزام بالإسلام، فإن المُكِرِّه مستبد، والناس لم يقاتلوا الاستبداد القديم ليأتي استبدادُ جديد.

وما الاستبداد؟ إنه تحكم القليل بالكثير.

قد يكون القليل واحداً وقد تكون فئة أو جماعة، المهم أنَّ قلة من الناس تصادر حق المجموع في الرأي وتتنزع منه حرية تقرير المصير، هذا هو الاستبداد.

إن الاستبداد مرفوض ولو كان باسم الإسلام. أكرر حتى لا يظن أحد أنني سهوت ولم أدرك ما أقول: حتى لو أراد المستبدون تطبيق الشريعة بالقوة وحمل سوريا على الإسلام فإن استبدادهم مرفوض، لأن الاستبداد شرٌّ مُحْضٌ، وهو قد يلبس عباءة الدين يوماً وينزعها في يوم آخر، فيذهب الدين ويبقى الاستبداد، ولنا في التاريخ عبرة.

إن بعض من يحملون السلاح يظنون أن مشاركتهم في الجهاد تسويغ لهم الحكم في مصير سوريا والسوبيين، فهم يخططون للمستقبل ويتحدثون عن الدولة التي يريدون أن يفرضوها على الناس، فإذا سألهُم: وماذا عن جمهور الناس، أين رأيهم؟

قالوا: مَن وافقنا قبلناه ومن لم يوافق حاربناه. يتحدثون عن عشرين مليون سوري وكأنهم ليسوا سوى أمّة من الذباب!

ثم إن في سوريا اليوم ألف كتيبة تقاتل النظام، فلو أننا سلّمنا أن للمقاتلين الحق في تحديد شكل الدولة السورية و اختيار رئيسها (أو أميرها أو ما شئتم من التسميات)، فكيف سيختارونه؟ من بين أنفسهم؟ سوف يتّقى الله نصف ألف فينسحبون من المنافسة ويقتل نصف الآخرون حتى يظفر أحدهم بالسلطان!

لا يا أيها المجاهدون. ليس مَن حمل السلاح أَولى بالثورة مَمَن فجّرها وشارك في نشاطها السلمي.

إن مئة ألف مقاتل يحملون السلاح اليوم هم المولود الذي خرج من رحم ثورة شعبية أَوْقد نارَها ملايين السوريين، وهم كلهم أصحابها ولهم الحق في تحديد مَالاتها وقطف ثمراتها.

إذا ظننت أن السوريين لا يعرفون الصالح فعرّفوه، ولكن أبداً لا تعاملوهم كأنهم أنعام بلا عقول أو أغذام بلا إرادات. إن أرض الشام هي أرض الملاحم والبطولات، وإن جيشاً من الدعاة والمصلحين قد آلوا أن يهبوها أنفسهم وما يملكون، فشاركونهم في عماراتها بالدعوة والإصلاح ولا تخربوها بقوّة السلاح.

إن للشام دوراً عظيماً في صناعة مستقبل الأمة، دوراً يشرّت به أحاديث الصادق المصدوق، وهو اليوم جَنِين في رحم الأيام وسوف يولّد في يوم يريد الله، ومستقبل الأمة يصنعه الأحرار لا يصنعه العبيد، والاستبداد لا يُنتج الأحرار بل يُنتج العبيد، فلا حاجة لنا به بعد اليوم ولن يطيقه السوريون الأحرار مهما كان لونه والعنوان.

الزلزال السوري

المصادر: